ألكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville)
قراءة في بعض أفكاره ومواقفه

د/ عبيد بوداود
جامعة معسكر

يعتبر القرن التاسع عشر(19)، من أهم القرون التي عرفت صراعا فكريا بين أهم التيارات والمذاهب التي بدأت تتبلور في أوروبا، ويعتبر هذا القرن صانع المعتقدات السياسية والإيديولوجية لأوربا المعاصرة، إن لم نقل العالم، وذلك على اعتبار الصراع الفكري قد بلغ مرحلة التشكل النهائي.

لقد ساهمت في هذه الحركة الفكرية شخصيات لا تزال تحظى إلى وقتنا هذا بكثير من الاحترام، وتستدعي اهتمام الدارسين والمفكرين، ولعل ألكسيس دو توكفيل من بين تلك الشخصيات.

أعتبر توكفيل من أهم مفكري عصره، وذلك بالنظر إلى الأفكار التي آمن بها ودافع عنها، وسجلها في مؤلفاته، وأهم هذه الأفكار دفاعه عن النظام الديمقراطي الحقيقي- في تصوره- ومبدأ الحرية؛ هذه الأفكار التي انعكست في كتابيه: «الديمقراطية في أمريكا، «و»النظام القديم والثورة».

أحاول في هذا المقال التعرض إلى دراسة هذه الشخصية الفكرية، وذلك بعرض حياته الشخصية والعلمية، متتبعا ذلك في دراسة كرونولوجية مختصرة، معتمدا فيها كثيرا على الكرونولوجيا التي جمعها فرونسواز ملونيو(Françoise mélonio) في مؤخرة كتاب ألكسيس دو توكفيل «النظام القديم والثورة».ثم بعد ذلك أحاول عرض أهم أفكاره مثل مفهومه للديمقراطية والحرية، وكيفية الوصول إليهما، والمقارنة بين الثورة الانكليزية والفرنسية والنموذج الأمريكي، معتمدا أساسا على القواميس التاريخية والموسوعات. وأخيرا أحاول التعرف على موقف توكفيل من احتلال الجزائر على اعتباره معاصرا لذلك الحدث الرهيب، بل عضوا في الكثير من اللجان الخاصة بالجزائر، ورجعت في هذا العنصر إلى كتاب « de la colonie en Algérie» انطلاقا من كتابات توكفيل جمع وعرض tzvetan Todorov، والدراسة التي قام بها: أورو بعنوان « توكفيل والجزائر»، والمعروضة في مجلة «l'Algérianiste»، أين تتصادم أفكار توكفيل المثالية مع المصلحة الوطنية، وربما يكشف موقفه من الجزائر بعض الحقائق من شخصية هذا المفكر.

وفيما يلي أهم ما سوف أتعرض له في هذا المقال:

أ- التعريف بتوكفيل :حياته الشخصية والعملية.

ب- أفكار توكفيل:

-1 مفهومه للديمقراطية والحرية.

2 - كيفية الوصول الى الحرية.

-3 متى يمكن تحقيق الديمقراطية؟

-4 المقارنة بين الثورة الانكليزية والفرنسية و النموذج الأمريكي.

ج- توكفيل وموقفه من المسألة الجزائرية.

أ-التعريف بتوكفيل: (حياته الشخصية والعملية)

ولد ألكسيس شارل هنري(Alexis Charles Henri) في باريس يوم 29 جويلية 1805، وبالضبط في شارع مدينة إيفاك(Évêque)، رقم987 بمقاطعة رول(Roule)، ولد آرفي كليرال دو توكفيل(Hervé Clérel de Tocqueville) من عائلة نورماندية عريقة النبل، فأمه لويس مادلين لوبليتي روزامبو(Louis Madeline le Pelletier Rosambo)، وهي البنت الصغرى لمالشارب(de Malesherbes) مدير وراقة ثم محامي للملك لويس السادس عشر[1].

يعتبر توكفيل الابن ما قبل الأخير لأمه، ولقد جمع النسب الشريف لوالديه، وحاولت عائلته أن تجعل منه رجل علم، حيث اتصلت بالقديس لوسيار(1817(Lesueur-1820 ليسهر على تربيته[2] .

وفي الفترة الممتدة ما بين 1820-1823، تابع دراسته بالمدرسة الملكية لماتز(Metz)، المدينة التي كان بشتغل فيها أبوه رئيسا لدائرتها منذ1817، ثم انتقل إلى باريس حيث زاول دراسته الجامعية مابين 1823-1826، في فرع القانون، وحصل على شهادة الليسانس في 1826، وما بين ديسمبر 1826 وأبريل 1827 زار إيطاليا وصقلية رفقة أخيه إدوارد ([3] (Edouard.

إن الأساس الثقافي والعلمي لتوكفيل، إضافة إلى ما ذكر، وكذلك الرحلات المختلفة التي سوف يقوم بها في مرحلة النضج، هي مكتبة والده حيث اكتشف فيها منهج الشك لديكارت، والتحاليل الأخلاقية والسياسية لمونتيسكيو وفولتير وروسو. وذلك من خلال المؤلفات التي اطلع

عليها، وكذلك من خلال قراءاته المتعددة خاصة في عهد الشباب والمراهقة، إذ اكتسب توكفيل تطورا في الجانب الحسي والشعوري، بدخوله عالم خاص حيث تعلم التقاليد على إثبات قيمه المندثرة، وهي الفترة التي فقد فيها الإيمان أو التسليم بالأفكار السائدة، وبدأ يتعرف على مبدأ الشك في كل شيء[4].

والحقيقة أن توكفيل أظهر منذ ريعان شبابه- في سن العشرين من عمره – نباهة وذكاء، مكناه من القدرة على بلورة الأفكار وتحليلها، وبدت عليه علامات النبوغ، ولقد أعطى المثل للشخصية المثقفة، حيث استطاع أن يهتدي إلى أفكار لم يتعلمها في المدارس، وإنما سعة وعمق تفكيره هو الذي أنتجها. هذا النضج المبكر يعود الى عبقريته وشدة إحساسه بالتجارب والأحداث التي عرفها العالم وفرنسا على وجه الخصوص.[5]

بدأ توكفيل حياته العملية، قاضيا (juge-auditeur) بمحكمة فرساي(Versailles) ابتداء من يوم 6 أبريل 1827، وهو ابن الاثنين والعشرين عاما، وهناك تعرف على صديقه غوستاف دو بومو(Gustave de Beaumont)، حيث كانا منحدرين من منطقة واحدة، ويتقاسمان الكثير من الأفكار والمبادئ.[6]

وفي الفترة الممتدة ما بين 1828-1830، تابع توكفيل المحاضرات التي كان يلقيها قيزو(Guizot) في جامعة السوربون(la Sorbonne) حول تاريخ الحضارة في فرنسا. وبعد مضي عشر سنوات من ذلك، اتجه كلية نحو السياسة، وترك القضاء تدريجيا، حيث استقال هو وزميله من مهنة القضاء في ماي سنة 1832 [7].

لقد أدرك توكفيل، وهو لا يزال طالبا مدى هشاشة النظام القائم في فرنسا، وهو ما سوف يولد لديه الرغبة في التعرض لهذا النظام بالدراسة والتحليل، وذلك ما سوف ينعكس في مؤلفه «النظام القديم والثورة ».

إن آفاق المعرفة والبحث، سوف تفتح على مصراعيها أمام توكفيل، وذلك من خلال الزيارة في إطار المهمة الرسمية التي سوف يقوم بها إلى الولايات المتحدة الأمريكية رفقة زميله غوستاف دو بومو، ففي الفترة الممتدة بين أبريل 1831 ومارس 1832، يغادران فرنسا نحو الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة نظام المساجين هناك، استغلها توكفيل في دراسة الديمقراطية في أمريكا، وعلى الرغم من قصر مدة المكوث بأمريكا إلا أنه زار عدة ولايات ومدن، منها نيويورك، بوسطن، فيلادلفيا، بالتيمور، وواشنطن، ولقد ساعده ذلك رفقة زميله على جمع الكثير من المعلومات، لتدعيم البحث الذي كانا يقومان به، وبالتالي الاستفادة منه[8].

وفي جانفي1833تم نشر التقرير المفصل عن نظام السجون في أمريكا بعنوان:»طريقة (نظام) المساجين في الولايات المتحدة، وتطبيقها في فرنسا»، ولقي ذلك التقرير رواجا واسعا وسط الطبقة المثقفة وعامة المجتمع، وفي أوت1833 زار لأول مرة إنكلترا. وفي هذه الفترة بالذات انشغل بتحرير مؤلفه»الديمقراطية في أمريكا»، والذي سوف يطبع وينشر الجزء الأول والثاني في جانفي1835، وخلال نفس الفترة يقوم برحلته الثانية إلى إنكلترا وايرلندا مع زميله غوستاف، وفي أكتوبر من نفس السنة أي1835 يتزوج بانكليزية تدعى ماري موتلي(Mary MOT-TLEY).[9] وفي سنة 1836سافر إلى سويسرا، ونشر مقالا عن الحالة الاجتماعية والسياسية لفرنسا قبل وأثناء 1789 في مجلة «la London and Westminster review».[10]

وبعد هذه الفترة سيتعاظم النشاط السياسي لتوكفيل من خلال المهام الرسمية التي أسندت له على مختلف المستويات.

أخفق توكفيل في الإنتخابات التشريعية التي جرت في نوفمبر1837، مرشحا عن منطقة فالونيا، لكنه سوف يترشح ثانية في الإنتخابات التي جرت في مارس1839، ويفوز ب317 صوتا مقابل241 صوتا [11] ، ويصبح بعدها عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية، وأثناء فترة عضويته أظهر نشاطا سياسيا مكثفا، حيث قدم ثلاثة تقارير حول إلغاء العبودية في المستعمرات قدمه سنة1839، وآخر حول إصلاح السجون في سنة1843، وثالث عن الجزائرسنة 1847. [12]

وكان قبل ذلك قد أصبح عضوا في أكاديمية العلوم السياسية والأخلاقية منذ 1838، وهذا يعتبر شرفا كبيرا لهذه الشخصية على اعتبار أن سنه وقتها لم يكن يتعدى الثالثة والثلاثين سنة، مما يعكس تفوقه ونضجه المبكر.[13]

لقد واصل توكفيل نشاطاته المتعددة، وتنقلاته التي من دون شك عمقت معارفه، وجعلته يطلع على الكثير من الأحداث والقضايا التي ميزت عصره، حيث سيزور الجزائر مرة ثانية، وكان ذلك سنة1846، وسوف ينشر تقريرا عنها سنة1847. [14] وفي الوقت الذي كان فيه صديقه بومون عضوا نشطا في البرلمان، وعضوا فعالا في الحقل السياسي ، كان توكفيل يرى أن التعفن طغى على أجهزة التسيير. ولعل هذا ما حمله على كتابة مؤلفه النظام القديم والثورة فيما بعد.

في أبريل1848 يصبح توكفيل عضوا في المجلس الدستوري، وفي شهر جوان من نفس السنة، يصبح عضو اللجنة التي خول لها مراجعة الدستور، وفي ديسمبر يدعم كافينياك(CAVAIGNAC) في انتخابات رئاسة الجمهورية، والتي فاز بها لويس نابوليون بونابرت(LOUIS NAPOLEON

.BONAPARTE) [15]

واصل توكفيل نشر بقية أجزاء مؤلفه»الديمقراطية في أمريكا»، وذلك بنشر الجزء الثالث والرابع في أبريل1840،غير أنهما لم يرتقيا الى مستوى الجزء الأول والثاني.[16]

ومما يدل على حسه، وعمق تحليله، وفكره الإستشرافي، ما جاء في الخطاب الذي ألقاه أمام أعضاء البرلمان فترة قليلة قبل ثورة 1848، وبالتحديد يوم 29جانفي1848، ومن أهم ما جاء فيه:»نستطيع أن نقول أنه لا يوجد على الإطلاق أي خطر شعبي، نقول ما دام أنه لا توجد فوضى مادية تهدد المجتمع، فتبدو الثورات بعيدة عنا، اسمحوا لي أيها السادة إذا قلت لكم أنكم مخطئين، إننا ننام الآن في الساعة التي نحياها على بركان، إنني على إيمان شديد بما أقول».[17]

عاد توكفيل من جديد إلى الحياة البرلمانية، وذلك بعد إعادة انتخابه بعد انقطاع، في تشريعيات ماي1849 نائبا عن منطقة فالون(Valognes) وفي ذلك التاريخ قام بأول رحلة إلى ألمانيا.[18]

وعلى إثر سقوط نظام لويس فليب عقب ثورة 1848، تم تأسيس الجمهورية الفرنسية الثانية بزعامة لويس نابليون بونابرت، وقد شغل توكفيل وزارة الشؤون الخارجية مدة خمسة أشهر من جوان إلى أكتوبر1849، حيث قدم إستقالته، وأبدى تخوفه من مسيرة لويس نابوليون بونابرت نحو السلطة الفردية. [19]

نلاحظ أن توكفيل كان يتحرز ويتحفظ من أشكال السلطة التي تتجه نحو الإستبداد، رغم ما قد تظهره من تعلقها بمبادىء الديمقراطية والحرية.

في الفترة الممتدة بين ديسمبر 1850 ومارس 1851، ينتقل توكفيل إلى إيطاليا، ويمكث بها هذه المدة لكتابة مذكراته ومشروع لكتاب حول الإمبراطورية. وفي شهر جويلية1851 يقدم تقريرا للجمعية التشريعية حول موضوع مراجعة الدستور [20]، وعلى إثر الانقلاب ضد نظام لويس نابليون في ديسمبر1851، زج به في السجن (سجن فانسانVincennes) مدة قصيرة، ثم أطلق سراحه. وعلى إثر ذلك سوف يعتزل توكفيل السياسة ليتفرغ إلى عالم الكتابة والتأليف.[21]

ومع بداية عام 1852 بدأ يجمع المادة التوثيقية التي سوف تمكنه من كتابة مؤلفه الهام «النظام القديم والثورة»، حيث جاء في رسالة لصديقه بومون:»منذ زمن بعيد وأنا منشغل بفكرة كتابة ونشر كتاب جديد، فقد فكرت أنه إذا كان بإمكاني ترك آثار في هذا العالم، فإنها ستكون إضافة حقيقية، لأني كتبت ومازلت إلا أنني عملت على أن أتناول موضوعا معاصرا لنا

لكي يمدني ويعطي وسيلة تثبيت الأحداث مع الأفكار، فلسفة التاريخ مع التاريخ ذاته». [22] وفي جوان1856 ينشر كتابه»النظام القديم والثورة» الذي منحه نجاحا آخر في الأوساط الشعبية.[23]

وخلال فترة جوان-جويلية1857، يستقر توكفيل بلندن، ليحضّر متابعة عمله حول الثورة، غير أنه سوف يسقط مريضا في سنة 1858، وينتقل على إثر ذلك إلى»كان» (Cannes)، وفي يوم 16 أبريل1859 يلفظ أنفاسه الأخيرة بكان، [24]وهكذا تنتهي مسيرة رجل، اعتبر عالم اجتماع ومؤرخ كبير، وعد من عمالقة القرن التاسع عشر.

الأفكار التي ميزت أليكسي دو توكفيل:

-1مفهومه للديمقراطية والحرية:

على الرغم من الإنتماء الأرستقراطي لتوكفيل، والذي من دون شك ترك آثارا على معتقداته الفكرية والسياسية، إلا أننا نعتبر توكفيل تخلّص لحد ما من هذا الموروث العائلي والفكري، وساعدته سعة ثقافته، والتجارب التي استقاها من خلال تنقلاته العديدة، وعمق التفكير الذي تميز به إلى تجاوز كل ذلك، وتقديم طروح فكرية عدت ثورة في حد ذاتها، وجعلت منه شخصية مثقفة مرموقة.

وما ميز هذا الليبرالي من خلال إنتاجه المتعدد، والتي كانت توحي بنظرته المتشائمة للتاريخ، هو ذلك التناقض أو عدم التجانس بين الحرية والديمقراطية.[25]

إن الديمقراطية بالنسبة لتوكفيل لا تحتاج إلى دراسة أو مناقشة هل يجب تطبيقها أم لا؟ بل يعتبر ذلك من المسلمات، لذلك اعتبره علماء الإجتماع واحد من أكبرهم في تلك الآونة. وبهذا التتويج يظهر إلى جانب مونتيسيكيو كأول أخلاقي فرنسي.[26]

يعتبر توكفيل مسيرة التاريخ تتجه حتما بالمجتمعات نحو الديمقراطية. أفكاره الرئيسة هي الحقائق الثلاث البارزة في مؤلفه «النظام القديم والثورة»، الأولى: وهي أن كل الناس مدفوعين بقوة مجهولة، والتي يمكن أن نعتبرها أنها تنظمهم وتمهلهم، ولكن دون أن تقهرهم، أحيانا تدفع ببطء، وأحيانا توجههم نحو تحطيم الأرستقراطية[27]، وهناك تبرز مواقفه المعادية لهذه الطبقة رغم انتمائه إليها، ولكن اجتماعيا لا فكريا. أما الفكرة الثانية فهي أن المجتمعات المختلفة التي استطاعت أن تتخلص من الحكم المستبد، هي بالتحديد المجتمعات التي لم تتمكن الأرستقراطية البروز بها، وهو بذلك بربط في علاقة سببية بين الأرستقراطية والاستبداد، وذلك بناء على دراسة التاريخ الأوربي، والمواقف والأدوار التي قامت بها هذه الطبقة في دعم

الأنظمة المستبدة، ومصادرة الحريات الفردية، وكبت مشاعر الجماهير وتطلعها إلى الحرية، ومن هنا تبرز الفكرة الثالثة، وهي أن الاستبداد لا يمكنه أن يحدث أشياء مؤذية إلا في المجتمعات التي تتواجد بها هذه الطبقة.[28]

يظهر من خلال هذا التحليل، أن توكفيل مثّل بحق رجل القطيعة مع النظام القديم، على الرغم من أن بعض المؤرخين يعدونه-لاسيما من خلال مشواره السياسي- من اليمين المحافظ. وربما تبرز في هذا المقام فكرة تتمثل في التباين بين الأفكار النظرية لتوكفيل، والتي ضمّنها في مؤلفاته، وبين مواقفه، وسلوكاته السياسية تجاه بعض القضايا الداخلية الفرنسية والخارجية، ومنها الموقف من المشكلة أو القضية الجزائرية.

لقد ربط توكفيل بين الديمقراطية والمساواة، وبالتالي طرح إشكال الديمقراطية في العمق، وربطه بالجانب العملي لا النظري فقط، وأثناء مناقشته لفكرة الديمقراطية في أمريكا، اعتبرها أي الديمقراطية تيارا لا يمكن مقاومته، لأنه أصبح قضاء لا يمكن الإفلات منه، واعتبر مناقشة فكرة الديمقراطية في حد ذاتها أي في وجوبها أو نفيها فكرة متجاوزة. إن المهم في تصوره هو كيف نجني الفوائد المترتبة على الديمقراطية؟ ولعل المساواة تعتبر أبرزها، لذلك اعتبر إعادة توزيع الثروات، وذلك بتقليل المسافات(الفرق) بين الغني والفقير، يمكن أن يؤدي ذلك إلى التقريب بينهما، إن فكرة الحق المشترك تملك القدرة المطلقة في تقوية المساواة، ولقد وجد توكفيل في الواقع الأمريكي ما يصدق تحاليله.[29]

ولعل في هذا التحليل انتقاد غير مباشر(غير صريح) للتفاوت الطبقي الذي كان يميز المجتمع الفرنسي مما أدى إلى تمييع الديمقراطية، وكان ينبىء بهزات اجتماعية سوف تتعرض لها فرنسا في المستقبل القريب.

- الأخطار التي تهدد الديمقراطية:

في رسالة إلى صديقه أوجان ستوفلس(Eugène stoffels) بتاريخ21 فبراير1835، يعرض توكفيل الخطوط العامة لتجربته الأمريكية، وكيف أصبح الشعب الأمريكي، شعبا ديمقراطيا مؤيدا للديمقراطية، فإن هذا الشعب يقدم درسا لمن يريد الإنتفاع منه، لمن يعتبر الديمقراطية: فوضى، ثورة أو حرب أهلية، إن الشعب الأمريكي يعلم أن الحكومة الديمقراطية يمكنها احترام ثروات الناس، وضمان حقوقهم، والحفاظ على حرياتهم، وتأميم معتقداتهم، وإذا كانت إرادة الله لم تعط البشر كامل الصفات والأشياء الحسنة(الإنسان صفته الأساسية اللاكمال)، لكنه أهدى الناس نوعا من السعادة، والتجربة الأمريكية تؤكد على أنه يمكن العيش في ظل هذه السعادة.[30]

هنا تبرز مثالية توكفيل والأخلاق التي يؤمن بها، ويحاول تعميمها على الآخرين، كما يظهر مدى تأثره بالنموذج الديمقراطي الأمريكي، ومحاولة إسقاط هذا النموذج على أنظمة دول أوربا، التي اعتبرها غير ناضجة، فحتى وإن لم يصرح بذلك في هذا المقام يمكننا أن نستنتج ذلك من خلال تعداده للحريات الفردية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتأكيده على الحقوق الفردية، مما يوحي أن أنظمة تدعي الديمقراطية لا توفر تلك الحقوق أو بعضها على أقل تقدير.

إن المؤمنين بالديمقراطية، يجب ألا يعتبروا أن ذلك النظام في منأى عن الأخطار، فإذا أصبحت عملية الاختيار بين النظام الديمقراطي وغيره، متجاوزة، إلاّ أنه يجب التمييز بين ديمقراطية منظمة وأخلاقية، وديمقراطية فوضوية، تعيش تحت هيمنة رجال فوضويين من أمثال ذلك أولئك الذين يعتبرون من بقايا الإمبراطورية الرومانية.[31]

إن نظرة توكفيل للأخطار التي تهدد الديمقراطية، لم تكن نظرة تنبئية بل هي تحليل سوسيولوجي للحركة الديمقراطية، ولعودة الوعي إلى القوى التي تحركه: الحرية والمساواة اللتان توصل توكفيل إلى إنتاجهما من أجل مستقبل الديمقراطية الفتية. إن الصراع بين الحرية والمساواة لا يمكن الابتعاد عنه، ولذلك يلاحظ توكفيل بأن الناس يبحثون عن الحرية للهروب من اللامساواة التي تنتجها علاقات التبعية، لكنهم كلما قضوا على حكم استبدادي، وجدوا أنفسهم أمام حكم استبدادي آخر تواجد بقبولهم، ولهذا فإن تساوي الشروط التي وضعها الناس من خلال ثورتهم ضد العبودية السياسية تتطور من يوم إلى آخر، لأن ديمقراطية الأخلاق ضرورية لتطوير الحضارة الصناعية، يتطلب ذلك وبدون شك، إن الأفراد سيجدون في هذه المساواة طعما للحرية السياسية، وسيعبر عن هذه الحرية في إطار إرادة عامة تكون مصدر تشريع موحد. إن استبداد المجالس سينبع من رغبة الأفراد في الحفاظ على السلطة الجماعية من أجل الحفاظ على المساواة، وهذا ما يجعلنا نقول بأن الحرية السياسية يمكن أن تنتج خضوعا إراديا، هذا الخضوع الذي يعتبر خضوع الفرد(الشعب)بالجماهير التي يذوب فيها، تلك السلطة الحامية ستتوسع وتوسع هذه الحماية، وسيكون تمركز هذه السلطة ليس إلا نتيجة للتمنيات والرجاء من الأفراد من أجل المساواة.[32]

هنا يجنح توكفيل إلى تحليل فلسفي للعلاقة بين الديمقراطية والمساواة، وبين الديمقراطية والحرية، والأخطار التي تهدد كليهما، حيث يعتبر النظام الديمقراطي المؤسس في ظل الإرادة الشعبية، قد يكون هو الآخر مستلب للحرية، حينما يتم التأكيد فقط من الأنماط والنماذج الشكلية، ويتم إهمال الجوهر، إن إرادة الشعب يجب أن تحترم وتجسد لكن من أجل ضمان الحرية.

كيفية الوصول إلى الحرية:

إن الضمانات التي تحمي الحرية من الانتهاك أو المساس في تصور توكفيل، هي:

اللامركزية الإدارية والسياسية، والتشكيلات الجمعوية والحزبية، واستقلال الصحافة، واحترام المعتقدات الدينية، هذه المبادىء أو القيم التي لاحظها على الديمقراطية الأمريكية، واعتبرها وسائل دعم الحرية وصيانتها.[33]

إن اللامركزية الإدارية ليس لها قيمة إدارية فقط، بل لها أثر على الروح الوطنية، لأنها تضاعف حظوظ المواطنين في الاهتمام بقضاياهم الداخلية، وبالتالي تأقلمهم لاستعمال الحرية وممارستها، وإن تراكم هذه الحريات الداخلية(حيوية ويقظة)، تبعد كل قوة مؤثرة مضادة لما تريده القوة المركزية، مسندة بدعامة الإرادة المشتركة.

أما الجمعيات فإنها تعوّد الناس التناسي أو التخلي عن الحكم، إن التضامن في الولايات المتحدة يظهر ثقة الأشخاص في قالب حركة جماعية تكون كذلك بدون دعوة الدولة أو إستدعائها، إن الطاقة الكامنة في الجمعية هي القوة المختلسة للحكام، وإن الكثير من الإستقلالية مضادة لنفوذهم.[34]

في حين يتمثل دور الصحافة في إسماع كلمة الشعب بالتوازي مع إرادة الشعب، التي تحاول استحداثها بعض التشكيلات، وهي ليست إلا وسيلة لاقناع المواطنين أنهم أرادوها لخدمتهم.[35]

إن المعتقدات الدينية تعطي للديمقراطية القاعدة الذهنية التي هي بحاجة إليها، إن الاستبداد يمكنه أن يستغني عن الإيمان، أما الحرية فلا يمكنها التخلي عنه، لأن في إرخاء الطريقة السياسية هي في حاجة إلى الدين الذي يمنح كل التحملات.[36]

إن جوهر الحرية التي يصبو إليها توكفيل هي تحقيق المساواة الإجتماعية، التي قد تقفز فوق الصراع بين الطبقات الذي قد تحدثه الديمقراطية، وينادي إلى روح الحرية حتى يمنع عدم انطباع المنظومات الديمقراطية بصبغة الحرية. إنه لا يستطيع إخفاء إلا ما يظهر له أكثر احتمالا، بفضول كبير هذه الروح السياسية التي هي أيضا عامل اجتماعي يقفز فوق مرحلة الثورة التي يضغط عليها، لا تتأخر في وصف انتقال المقاومات السياسية إلى مقاومات(صراعات) طبقية، ويذهب فورا إلى وصف المروجين لفكرة الديمقراطية للإقصاء في حدس الأبصار، روح هذه الديمقراطية المقبولة التي تعتمد على الدول المتقدمة حاليا، وبعيدا أن تكون مرفوقة بتقوية المنظومات التحررية، يعتبر توكفيل أن دمقرطة المجتمع يضعف من ذوق الحرية.[37]

متى يمكن تحقيق الديمقراطية؟

تتحقق الديمقراطية إذا أردنا أن نؤسس لنظام اجتماعي بدون نخبة اعتباطية، حيث أن أكبر عدد من الناس يعيشون في أحسن حال، لكن في هذه الديمقراطية، الحرية تكون مرفوضة بدون أن يسود سلام منسجم. إن الإحساس بالمساواة يكون بنفس القيمة، حيث أن القناعات المتحصل عليها لا تقوم إلا بالمزيد من الرغبة بعيدا عن الحصول على المفضل منها. إن من مفارقة المجتمع الذي يصبح محافظا وفوضويا في نفس الوقت-فوضوي بسبب عدم تفادي الشروط- ومحافظ لأن معظم أعضائه يأملون في الكثير من الخسارة على حساب الربح في الثورة.[38]

توكفيل يفكر كديمقراطي، أرستقراطي واعي لا يستغني عن سنة1789، لكن ينظر إليها على أنها أكبر لحظة ثورة، لأنها حكمت بالمنطق حينما قرروا العمل من أجل التحرر، غير أن الأنظمة التي تعاقبت بعد هذا الحدث لم تحقق الهدف المرجو، لأنها لم تستطع هزم المركزية، ولم تتخلص من الأرستقراطية، ولم تحسّن وضع المهمشين، ولم تتمكن من نسف التقاليد والذهنية القديمة.[39]

إن توكفيل أدرك بحسه وعمق تفكيره، أهمية الحركات(الطبقات)الإجتماعية في حركية المحتمع، مما قد تصدقه الأحداث المتعاقبة على التاريخ الأوربي عامة والفرنسي خاصة، حيث كان لهذه الحركات الإجتماعية دورها في تحديد طبيعة النظام.

المقارنة بين الثورة الانكليزية والثورة الفرنسية والنموذج الأمريكي:

لم يشاطر توكفيل، أستاذه قيزو(Guizot) في نظرته المتفائلة إلى البرجوازية، بالنسبة له الثورة الانكليزية لسنة1688، والتي أسست لنظام برلماني دائم، لا يليق أن تؤخذ كنموذج كما يظنها قيزو لفرنسا المعقدة بثورتها غير المكتملة، والتي تبحث دائما على نظام سياسي يحقق المزاوجة بين الديمقراطية والحرية، والذي يضمن سيطرة الطبقات المتوسطة، غير أن ثورة 1688، لم تضمن سوى تتويج الأرستقراطية.[40]

ما بين الأرستقراطية الانكليزية والثورة الفرنسية، ربما يوجد اتجاه ثالث، مسجل في الحقيقة التارخية، والذي وفق بين الاتجاهات الليبرالية للأولى والاتجاهات الديمقراطية للثانية، إنه النموذج الأمريكي، حبث أن السفر إلى أمريكا جعله داخل إشكالية الديمقراطية.[41]

إن الديمقراطية الأمريكية في تصوره، هي المجتمع الإنكليزي في بدايته، ولكن بدون أرستقراطية

وعمران تدريجي، وجدت بدون ثورة، ولكن عند طريق هجرة المعارضة الدينية التي حمّست الفردانية. وإن انفعالها الأناني قد أغناها، وهذه الأنانية هي التي حافظت وحمت الحرية والاستقرار الاجتماعي، وإن العاطفة التي تربط الأمريكي بوطنه، والمتشابهة مع العاطفة التي يبديها لعائلته، هي التي عمّقت لديه فكرة الأمة، وعلى اعتبار أن أمريكا بلد كبير، أين المؤسسة السياسية تسعى إلى الذوبان في المؤسسة المدنية، تأتي فرنسا على النقيض من ذلك حيث أن التاريخ والدولة يحضران بقوة.[42]

في فرنسا المليئة بالمفارقات الاجتماعية، والتفاوت الطبقي، والمتميزة بكثافة التخصص الداخلي، عملت الدولة على تطوير الاتجاهات المركزية، وفي مواجهة مجتمع متباين، وفي مواجهة ضغط اجتماعي بالخصوص، في الوقت نفسه عملت على إفراز إيديولوجية المساواة. لقد أظهر توكفيل كيف أنه داخل هذا الإختلاف الجلي للمؤسسات المحلية، فإن الملكية عززت الجهاز المركزي، ولعبت دور المرشد، وبالتالي أفرغت الديمقراطية من جوهرها. وبتدهور هذه المؤسسات فإن الثورة1789، آمنت بالقضاء على الاستبداد، وفي الحقيقة لم تعمل سوى على تحرير الدولة المركزية من آثار النظام القديم، والتي كانت تخفي من ورائه تثبيت نفوذ الأرستقراطية، ولذلك فان الثوريين لم يعملوا سوى على تطبيق منطق المساواة، في حين أن جوهرها المطلق بقي بعيدا عن ذلك، إلا على مستوى الفكر. إن الثورة لم تعمل ولم تحقق التدمير الشامل للنظام السياسي القديم، وإنما عملت على إحكامه وتوطيده.[43]

بهذا الشروح، نستنتج إلى أي مدى تمبز توكفيل عن تفاسير معاصريه، ويظهر مدى رؤيته المتشائمة للماضي، وعدم رضاه بالخط الثوري الذي لم يحقق جميع الأهداف المنتظرة، وبالتالي اعتباره النموذج الفرنسي والانكليزي على حد سواء غير مكتملين، في حين أنه يرى في النموذج الأمريكي، النموذج الذي قد يحقق الديمقراطية رابطا إياها بالحرية. غير أن هذه التحاليل لم تنطلق من فراغ، وإنما من معاينة ميدانية، وكذلك حاول إيجاد الشروح الممكنة لكل نموذج، حيث رجع إلى التاريخ، وقدم نظام الدولة أو حداثته، وإلى خصوصية كل مجتمع من حيث درجة الترابط أو التنافر وعوامله كذلك ليفسر ويشرح هذه الوضعيات ولكن ليس لكي يبررها، لأنه كان يؤمن بحرية المجتمع وإمكانية التغيير.

توكفيل والمسألة الجزائرية:

لم يترك توكفيل مؤلفا عن الجزائر مثلما فعل عن أمريكا، على الرغم من اهتمامه الكبير بموضوع الجزائر.[44]

حينما كان يخوض تشريعيات1837، كتب رسالتين، عن الجزائر، أظهر فيهما مقدرته كرجل دولة، وبعد سنوات انتقل هو وزميله بومو(Beaumont) إلى الجزائر ماي-جوان[45].1841 كان من المعارضين لإبرام معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر، وكان يعتقد أن القبائل سيميلون مع الوقت إلى الحضارة الفرنسية، وظن كذلك أن الشعب الجزائري والفرنسي سيصبحان شعبا واحدا، واعتبر أن الإسلام هو العائق الوحيد الذي قد يحول دون ذلك. ولقد أيّد توكفيل مشروع استعمار الجزائر، وحاول البحث عن السبل للاحتفاظ بالجزائر.[46]

وبعد عودته من الجزائر كتب مذكرة هامة عن الجزائر، تلخص قرءاته وانطباعاته، وحينما أصبح نائبا مابين1842-1849، اشترك في مختلف اللجان التي اهتمت بالوضعية الجزائرية، وقدّم خطابا متميزا سنة1846، وحرّر عدة تقارير سنة1847.

ما بين أكتوبر وديسمبر1846، قام بزيارة ثانية إلى الجزائر هذا السفر عمّق معلومات توكفيل عن الجزائر، وبعد عودته إلى فرنسا في فيفري1847، ترأس اللجنة المكلفة(المقررة)، والتي أصدرت مشروعي قانونين، واحد متعلق بالقروض الاستثنائية المخصصة للجزائر، والثاني بإنشاء المستوطنات الفلاحية تبعا لمشروع جديد اقترحه بيجو(BUGEAUD).[47]

إن موقف توكفيل من مسألة احتلال الجزائر، وكيفية التعامل مع هذه المسألة يمكّننا من الحكم على قيمه الفكرية، وأخذ فكرة مكتملة عن فكره السياسي.

حينما سافر توكفيل إلى أمريكا، لاحظ مباشرة معاناة العبيد السود، وإن العضو المنتخب في الغرفة الوطنية، كان ضمن لجان التحقيق لمناقشة مشكلة العبودية، والتي حضّرت مشروعا لإبطالها في المستعمرات الفرنسية القديمة مثل الأنتيل(Antilles)، وفي مداخلاته احتج بالمبادئ الإنسانية المقرونة بفلسفة التنوير، واعتبر العبودية مرفوضة باسم الحق الطبيعي.[48]

كما أن توكفيل يعترف بالمساواة بين الناس على اختلاف انتماءاتهم، وهذا ما تعكسه النصوص التي كتبها في هذا المجال، لقد استوحى أفكاره عن الإنسان والحرية من المسيحية التي اعتبرها دين الانسان الحر (le christianisme est une religion d'homme libre).[49]

إن المفارقة بين المبادىء التي كان يحملها توكفيل، والتي انعكست في مؤلفه»الديمقراطية في أمريكا» من رفضه لمبدأ العبودية، وما بين موقفه من احتلال الجزائر، قد تبررها المصلحة الوطنية الضيقة، أو أثر السياسة في الأفكار والأخلاق.[50]

وعلى الرغم من أن توكفيل يقر بأن وضعية الجزائريين المسلمين، ازدادت سوءا بالوجود

الفرنسي، لكنه بالمقابل لا يعارض فكرة الاحتلال، بل حاول البحث عن الطرق التي تستطيع بها فرنسا الاحتفاظ بالجزائر،[51] وكان من أشد المتحمسين لفكرة الاستيطان والداعين له، والمدافعين كذلك عن المستوطنين، وذلك بتوفير الشروط اللازمة والمشجعة لهم على الاستقرار بالجزائر.[52]

إن احتفاظ فرنسا بالجزائر يعتبر من قبل المصلحة الوطنية العليا، وإن أهمية المستعمرات في تصوره، لا يعود للفائدة الاقتصادية التي تجنى منها، وإنما للأهمية الإستراتيجية لتلك المستعمرات. وكان من المؤمنين باستعمال القوة لاخضاع الجزائريين، حيث اعتبر الحرب هي سياسة القوة، واعتبر الحرب كذلك الوسيلة المحققة لأحلام فرنسا في التوسع[53] «اعتقد أن جميع الوسائل لمضايقة القبائل لابد من ممارستها واستعمالها، أستثني فقط التي تنبذها الإنسانية وحق الأمم»[54]

لم يكن توكفيل مؤيدا لفكرة الاستعمار فحسب، بل كان مرشدا له، وكان من مناصري الاحتلال الجزئي، المقرون باستيطان مكثف، وبمدى صلاحية المناطق للاستغلال. وكان خبيرا بالشؤون الجزائرية، لذلك كان يرى أن فرنسا في الجزائر لا تواجه جيشا، وإنما شعبا بأسره، لذلك عليها أن تتعرف عليه، على مواطن قوته وضعفه، تشكيلاته القبلية، وكان يرى في الحركة الدائمة للقبائل الصعوبة التي تعرقل مشروع الاستعمار، وإن صعوبة استعمال المدافع لانعدام طرق المواصلات يجعل فرنسا مضطرة لاستعمال الحيوانات بدلها.[55]

كان توكفيل يرى أن الجزائر، تشكل قلقا كبيرا، ويرى في البحر الأبيض المتوسط أنه»بحر سياسي»، وهو الفضاء الاستراتيجي الذي تستطيع به فرنسا تعويض ضعفها داخل القارة الأروبية[56]، لذلك كان من أشد مناصري الاستيطان الفرنسي بالجزائر لإلحاقها بفرنسا، وكان من أشد المتحمسين لتحسين ظروف المستوطنين الأمنية والاقتصادية والاجتماعية لدعم الاستعمار، وتحفيزهم على البقاء في الجزائر.

ولم يكن يرى أن فرنسا سوف تتخلى عن الجزائر:»لا أعتقد أن فرنسا تفكر بجدية في مغادرة الجزائر، التخلي عنها في نظر العالم، يعني إعلان انهزامها،كل شعب يتخلى بسهولة عما يملك، ويتراجع بهدوء إلى حدوده القديمة، يعلن أن أحسن فترات تاريخه قد انتهت، إنه يدخل بوضوح في مرحلة الانحطاط».[57]

هذا ما أعلنه توكفيل، وهو يعكس بوضوح النظرة الشوفينية المتعصبة لوطنه، وفي ذات الوقت النظرة البراغماتية البعيدة عن الكثير من القيم التي رفعها ونادى بها، ولكن ليس في الجزائر.

إن موقف توكفيل من المسألة الجزائرية، وضع الكثير من أفكاره النظرية على المحك، وبدا الفرق واضحا بين المثل التي رفعها، وموقفه وسلوكه تجاه الجزائر، لذلك هناك فرق بين توكفيل المفكر، وبين توكفيل السياسي، فمن هذه الناحية الأخيرة يصنف ضمن اليمين المحافظ. ولا أعتقد أن توكفيل هي الشخصية الوحيدة التي حدث لها هذا الانفصام بين النظري والعملي، بين الذاتية والموضوعية، وبين الاعتدال والتطرف، وبين التحيز والحياد.

خاتمة:

إن مشاركة توكفيل في الحياة الفكرية والسياسية نستطيع أن نحدد لها ثلاثة أبعاد:

أولا: فهو مؤرخ على الرغم من أن بدايته في ذلك أدارت ظهرها لحرب الخنادق، التي انتهت عندها الأحداث التاريخية الخاصة بالثورة، حيث اختار كل واحد المنطقة التي تناسبه، في حين يوجد الآن(زمن توكفيل) جيل من الشباب يقترب من الأجيال التي هجرت الخنادق بهدف التفكير في الثورة الفرنسية، ولكن من جهة أخرى أظهرت تحررها إلى أبعد حد من النظام القديم، والذي هو مسار غير كاف لفهم تميز المجتمع الفرنسي وتاريخه.

ثانيا: تتجلى في عمله المنهجي، بحيث كان توكفيل باحثا ميدانيا، خاصة في عمله حول «الديمقراطية في أمريكا»، وباحثا أرشيفيا مثلما هو الحال في كتابه»النظام القديم والثورة»، فقد عمل توكفيل مرتبطا وبصرامة لفرض نظرياته وفرضياته عن طريق اختيارات تجريبية، فقد كان من مناصري الدراسات المقارنة مثل أساتذته مونتيسكيو وقيزو، فقد كان يجهد نفسه دائما بهدف تبرير مصطلحاته لتجاوز الكلام البسيط. وفي مقابلة الوثائق كان دائما يتجنب التعصب المعرفي مثل التصورات الرومانتيكية للتاريخ.

ثالثا: عمله التنظيري، إن بداية توكفيل، كانت بداية عالم اجتماع بما أنه كان يطالب بامكانية وجود قوانين ثابتة تحكم وتكوّن المجتمع. إن تصور توكفيل للمجتمع يقترب وبشكل كبير من تصور مونتيسكو الذي ربطه بالسياسة والمؤسسات القائمة بإحكام، زيادة على تأثره بقيزو أو ماركس الذي ربطه وبوضوح بالاقتصاد.

وعلى مستوى آخر، يشاطر ماركس فيما قاله في الأهمية التي يقرنها إنتاج المجتمع بالعامل الإيديولوجي، فهذا في الحقيقة يسبب غموضا ولكن غني في مفاهيمه الديمقراطية، ففي الوقت نفسه سياسة مثالية(تقسيم السلطة على الجميع)، ومجتمع مثالي اتجاهه المباشر العمل على تسوية القيم الاجتماعية. إن هذه المثالية تبدو غير منفصلة عن المسار التاريخي الذي أنتجها،

والذي يسمح لها أن تتجسد:»إن علم الاجتماع والتاريخ كما كتب برودال (F.Braudel) لا يمثلان عند توكفيل سوى وسيلة واحدة، ووجهة واحدة كذلك لرؤية المجتمع».[58]

غير أن المفارقة التي ميّزت فكر توكفيل، هو ذلك التناقض الصارخ بين المبادىء التي كان يؤمن بها، والقيم الأخلاقية التي رفعها، وظهرت في مؤلفه»الديمقراطية في أمريكا» ، حيث استهجن العبودية، ودعا إلى تحرير العبيد، وكان من المدافعين عن النظام الديمقراطي، والذي اعتبر الحرية جوهرها، وموقفه من احتلال الجزائر وممارسات فرنسا فيها من جهة أخرى، وكأنه كان يفكر بفكرين متناقضين تماما، ولعل المصلحة الوطنية الضيقة أملت عليه تلك المواقف الداعمة لاحتلال الجزائر، وهذا ما يضفي على أفكاره الكثير من الميوعة، لأنه لا يمكننا أن ندعوا لفكرة ثم نعمل على تكسيرها أو نقضها في ذات الوقت.

إن توكفبل ظهر كشخصية متحررة بل وثائرة على الكثير من الأفكار والممارسات السائدة في عصره، وهذا ما جلب له الكثير من التقدير والاحترام، وتميز بالعمق في التحليل المصبوغ في الكثير من الأحيان بالطابع الفلسفي والأخلاقي، وعد وبدون شك من عمالقة مفكري القرن التاسع عشر(19)، وإن ما يعاتب عليه هي مواقفه الشوفينية نحو وطنه، حينما ساند فكرة الاحتلال لتعزيز مكانة فرنسا الدولية، ولربما هي الفكرة الوحيدة التي لم يستطع التخلص منها، على اعتبار الاستعمار وقتذاك كان موضة العصر، ورمز عظمة الأمم وقوتها.

الهوامش

- Mélonio Françoise : chronologie, dans le livre de Tocqueville « L'Ancien régime et la révolution », Flammarion, paris, 1988, p409.

2 - DUBOIS Michel : les fondateurs de la pensé sociologique, copyright, paris, 1993, p14.

3 - « TOCQUEVILLE » : dictionnaire encyclopédique d'histoire, nouvelle édition, mars 1986, p4903.

4 - Mélonio Françoise, op.cit., p410.

5 - « TOCQUEVILLE » : dictionnaire encyclopédique d'histoire, p4604.

6 -Dubois Michel op.cit, p14.

7 - Mélonio Françoise, op.cit, p410.

8-« Tocqueville » : Bruguière André, dictionnaire des sciences historique, paris, 1986, p667.

9 - Mélonio Françoise, op.cit, p410.

10-Ibid. p410.

11- Dubois Michel, op. Cit, p14.
12-Mélonio Françoise, op. Cit, p410.
13 -Ibid. p410.
14 -Ibid. p410.
15 - Ibid. p410.
16 -Ibid. p 411.
17-Dubois Michel, op. Cit, p 14. Dictionnaire encyclopédique d'histoire, p4631.
18- Mélonio Françoise, op. Cit, p 411.
19-« Tocqueville » : dictionnaire encyclopédique d'histoire, p4631. Dubois Michel, op. Cit, p14.
20- Mélonio Françoise op. Cit, p 411.
21- Dubois Michel op. Cit, p 14.
22 -Ibid. p 14.
23 - Ibid. p 14.
24-Mélonio Françoise, op. Cit, p411.
25- « Tocqueville », dictionnaire des sciences historiques, p 667.
26-« Tocqueville », encyclopaedia universalis, corpus 22, paris, p702.
27- « Tocqueville », dictionnaire des sciences historiques, p668.
28 - Ibid. p668.
29-« Tocqueville », encyclopaedia universalis, p703.
30 - Ibid. p 703.
31 - Ibid. p 703.
32- Ibid. p 703. « Tocqueville » : dictionnaire encyclopédique, p668.
33- « Tocqueville » : encyclopaedia universalis, p703.
34- Ibid. p703.
35- Ibid. p704.
36- Ibid. p704.
37- Ibid. p704.
38- Ibid. p704.
39- Ibid. p704.
40- « Tocqueville » : dictionnaire des sciences historiques, p 668.
41 - Ibid. p 668.
42- Ibid. p669.
43- Ibid. p669.
44- Tocqueville Alexis, de la colonie en Algérie, Ed complexe, Bruxelles, 1988, p9.
45- Ibid. p10.

46- Hourant Georges pierre : «Tocqueville et L'Algérie ». L'Algérianiste 43, septembre 1988, p82.

47- Ibid. p87.

48- Tocqueville, de la colonie en Algérie, p11. « L homme n'a jamais en le droit de posséder l'homme, et le fait de la possession a toujours été et est encore illégitime ». Tocqueville, œuvres complètes, t 3, vol 1, écrits et discours politiques, paris, Gallimard, 1962, p54.

49 - Ibid. p12.

50 - Ibid. p15.

51- Ibid. p15.

52- Hourant op. cit, p87.

53- Tocqueville de la colonie en Algérie p19-20

54- Ibid. p32.

55 - Ibid. p162.

56- Hourant, op. cit p88.

57 - Ibid. p88.

58-« Tocqueville », dictionnaire des sciences historiques, p669.